

الغواص الذي سمع صوت المدينة

حمادة حامد محمود نور الدين

يوسف نصّه أصم فوق الميّة، وتحت الميّة بيسمع كل حاجة.

الحكاية بدأت بمرض إيد في السابعة. درة صديد في ودنه اليمين، اتعالجت غلط، وضعّفت السمع عنده خمسين في المية. مدرسة الغردقة الابتدائية خلّته يقعد في الصف الأول «عشان اللي بيسمعش بيقعد قريب». زمايله اتعلموا يكلموه من شمّاله، والمدرّسين نسيوا يبصوا له وهما بيتكلموا، ويوسف اتعلّم لوحده يقرا الشفايف، زي ما اتعلّم بعدين يقرا البحر. بس تحت الميّة، في الغطس، الحكاية بتتقلب: العظمة بتوصل الصوت أحسن من الهوا، ويوسف في الميّة كان أحسن واحد في المركب يسمع صوت الدلافين من بعيد، وصرير المراسي، ونبض المضخات. الناس فوق بتقول عليه «اللي مش سامع»، والغواصين تحت بيقولوا «يوسف ودانه زي السونار».

اشتغل خمستاشر سنة في شركات الغطس: غطّاس صيانة، مش غطّاس مراكز سياحية، عشان السياحة بتطلب «مظهر وشكل» والصيانة بتطلب إيد وودن. يصلّح الشبكات والمراسي، يفك الشناكل من المراوح، ينزل تحت الأرصفة في العتمة والطين.

شغلانة محدش بيشوفها، بس المراكب كلها بتقف عليها. وكان مبسوط بيها. تحت الميّة محدش بيكلمه أصلًا، فمحدش عرف إنه مش سامع كويس، والميّة كانت المكان الوحيد في العالم اللي يوسف فيه مش «اللي مش سامع». فيه هو أكثر واحد سامع.

يوم الأربعادة ده، في غطسة عادية لإصلاح شبكة قرب الشعاب، سمع حاجة ما سمهاش قبل كده.

أجراس.

مش جرس مركب، ولا طنين المضخات. أجراس برج، منتظمة، غميقة، جاية من تحت، من العمق اللي أعمق من مسموح الغطس التجاري. اتنين وأربعين متر. رنة، فراغ، رنة، فراغ، زي قلب بيدق ببطء.

طلع يوسف فوق، سأل القبطان: «في منارة مائية هنا؟ عوّامة بجرس؟» القبطان ضحك: «في المنطقة دي مفيش حتى سمكة قرش. هتبقى المضخة بتاعة رشيد.» بس المضخات بتطن، ما

بترنش. ويوسف نزل تاني يوم لوحده، من مركب صاحبه الصغير، على حسابه.

الأجراس كانت أوضح تحت. وكل ما ينزل أعمق، تيجي الرنات أقرب، كأنها طالعة لفوق، كأن حاجة تحت بتصعّد الصوت درجة درجة ناحيته هو.

على عمق خمسة وتلاتين متر، شافها.

مش مدينة كاملة. برج. برج جرس حجري، قديم قدّ القلاع، مغطى بالمرجان من نصه لتحت، واقف على هضبة غرقانة في قاع خليج هادي، وحواليه بقايا حيطان وأعمدة، شوارع من تحت الرمل، حارات نايمة. والجرس، لسه في مكانه في قبة البرج، بينزل ويطلع ببطء مع تيار الميّة، ويرن، رنة، فراغ، رنة، زي ما يكون لسه شغال من يوم ما الميّة دخلت.

يوسف ما قدرش يقرب أكتر. الهوا في الأسطوانة كان بيخلص، والعمق ده مش لعب. طلع وهو حافظ المكان، وقعد الليلة كلها في مكتبة الغردقة الصغيرة يقلّب في أطالس البحر الأحمر القديمة،

لحد ما لقاها: «قرية مرسى العتمة»، بلد صيادين ولؤلؤ، غرقت في زلزال سنة ١٨٨٣ تقريبًا، «ومعظم بيوتها وأهلها نجوا للجبل، لكن برج الأذان القديم غرق بحجارته». مؤرخ محلي كاتب ملاحظة صغيرة: «وادّعى الصيادون أجيالًا أنهم يسمعون أجراسًا تحت الماء في ليالي السكون، فسّروها بالخرافة، إذ لا أجراس في برج أذان.»

لا أجراس في برج أذان. بس يوسف سمع أجراس.

رجع لها تالت يوم، والمرة دي نزل بكاميرا. صوّر البرج، والحيطان، والأعمدة. وبعد ما صعد، لقى على شاشة الكاميرا حاجة وقفت نفسه: في آخر فريم، مدخل البرج المضلوم كان فيه ضوء. ضعيف جدًا. أخضر. بيرمش بالتزامن مع الرنات.

قعد يفكر طول الليل. لو حكى لصحابه الغواصين، هيقولوا عليه بيهزر، والصور مش حاسمة، والضوء الأخضر ممكن يتفسّر بأي حاجة. ولو سكت، البرج هيفضل غير معروف، والحي الغرقان هيفضل نايم في سلامه، زي ما هو نايم من مية وأربعين سنة. مفيش خطر عليه من حاجة... غير إن يوسف عارف إن الخليج ده نفسه متكتب عليه مشروع من زمان. كل سنة اتنين، شركة بتيجي

تقيس وتطلع، والصيادين بيهزروا: «عايزين يردموا البحر يا يوسف.»

يوسف كان يقدر يعمل ضجة. يكلم الجرايد، الجامعة، السياحة. بس في نفس الأسبوع، الشركة اللي شغال فيها وقّعت عقد تجريف للخليج نفسه، عشان «توسعة المارينا السياحية». والتجريف كان هيبدأ من الهضبة الغرقانة بالظبط، لأنها أنسب قاع.

يوسف دخل على المدير العام، وحكاله. قبلها بيوم كان واقف في الاجتماع الصباحي بيسمع نص الكلام، زي عادته، وبيشوف الخريطة متنورة على الشاشة: مساحة التجريف، متعلّم عليها بالأحمر، في قلب الخليج. وإيده كانت في جيبه ماسكة صور البرج، والحسابة في دماغه مش صعبة: حكى، وممكن المدير يدور على مصلحته. ما حكيش، والبرج يتكسر في صمت، زي ما غرق في صمت. المدير بص للصور، وشال نضارته، وقال بصراحة رجال الأعمال: «حلو أوي. أطلال تحت الميّة يعني سياحة غطس يعني فلوس. بس الدراسة بتقول القاع ده مالوش قيمة مسجلة، والعقد

متوقع. لو عايز توقف التجريف، محتاج حاجة مسجلة، رسمية، يوقف عليها قرار. صور مش كفاية.»

يعني محتاج دليل يتشال من القاع ويتسجل.

يوسف نزل رابع مرة، وهو عارف إن اللي بيعمله ممكن يودّيه للسجن: إخراج أثر من قاع البحر من غير تصريح جريمة. بس الحسبة كانت واضحة زي الميّة الصافية: لو سبق التجريف، البرج يتكسر والحي يتردم. لو خد حاجة صغيرة، حاجة واحدة، يثبت بيها إن المكان أثر، الجهات توقف كل حاجة لحد الفحص. والفحص بياخد سنين. والبرج يفضل واقف.

الجرس كان تقيل ومغروس في القبة، مستحيل. بس في مدخل البرج، تحت طبقة المحار، إيده وقعت على حاجة صغيرة: طرابيزة نحاس؟ لا. صينية. صينية نحاس محفورة، عليها نقوش إسلامية وكتابة. غسلها بإيده من الرملة، وقرا في ضوء الكشاف: «برج الصيادين - وقف عبد الله بن موسى الصائغ - ١١٢٣ هجري».

طلع بالصينية. سلّمها تاني يوم لمفتش الآثار بنفسه، وحكى كل حاجة، واستنى العقوبة. المفتش، راجل جامد، سمع الحكاية كلها، وبص للصينية ساعة، وبعدين قال الجملة اللي يوسف مش هينساها: «اللي انت عملته غلط قانونًا. واللي انت عملته صح أثرًا. هتقعد في البيت أسبوعين لحد ما نتصرف، وبعدين هنستدعيك... بصفتك خبير غطس محلي، عشان تدلنا على المكان.»

التجريف اتوقف. الخليج اتسجل منطقة فحص أثري. وشركة المارينا نقلت مشروعها شمال، لمكان قاعه رمل ومفيش فيه حاجة.

ويوسف؟ رجع يغطس، بعد ما خلصت التحقيقات براءة ذمة. بس المرة دي نزل للبرج بمرافقة فريق الآثار، وشاف اللي مكانش يقدر يشوفه لوحده: الضوء الأخضر اللي بيرمش في المدخل. طلع مستعمرة شعاب مرجانية مضيئة، حاجة طبيعية، بتنبض مع التيار اللي بيحرك الجرس. مفيش مدينة صاحية. مفيش نداء. في حاجة أغرب: مدينة غرقت من مية وأربعين سنة، ولسه بتتكلم بالطريقة الوحيدة اللي تعرفها، صوت جرس، عشان يوصل في الآخر لودن اللي تعوّد يسمع تحت الميّة أحسن ما بيسمع فوقها.

وفي آخر يوم في الفحص، يوسف نزل لوحده خمس دقايق، وحط إيده على حجر البرج، وقال جوّه المنظم بتاعه، بصوت سمعه هو بس:

«وصل يا عم. وصل.»

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app